**خمس قصائد من المجموعة الشّعرية "ربع قرن من النّظر"**

**الصّادرة عن الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت- 2014**

**عــشـ..شـ.. ــشـجرة**

بدوري حملتُ قَشّاً

قشّاً كثيراً

ومضيتُ أبحثُ عن شجرة أبني عليها عُشِّي

إلا أني لم أجد.

وهكذا

بالقشِّ الذي التقطتُ

حشوتُ صدري

اخترتُ حقلا،

ووقفتُ منتصبةً عليها.

.

**جراح أليفة**

كُلّ ما فيك كبر… إلا يديك

كلما مدّ إليك أحد إصبعاً

غُصناً يابساً أو سكيناً،

بلا تروّ أو تمييز

— كيد رضيع —

التفّت عليهِ قبضتك البدائية

وتشبَّثَتْ به.

.

**أهلُ الحياة**

في مهابة

تليق بالنّعش الذي يحمل فوقَه

في رداءٍ أسود

يليقُ بالعزاءِ الذي يسيرُ فيه،

يمشي بصمت

ظِلُّنا.

.

**ما يخيف**

ما يُخيفنا في الفزّاعات

— قالت العصافير —

ما يجعلنا نطير بعيداً

هما ذراعاها،

ذراعاها المفتوحتان على الدّوام

في استعدادٍ مُريب لأن تحتضن

أياً كان.

.

**قطفنا من الشَّجرةِ دُموعَها**

ما أكثرَ ما قطعناه كي لا نصل

ما أوهن الحنين الذي كالشّعفة أخذ يكنسُ

أقدامنا كي لا نعود.

لكنّنا الآنَ، هنا

والشَّجرة الوحيدة بالحديقة

من أغصانها تتدلى ثمار الكمثرى

توشك أن تسقطَ من هُدبِ الشَّجرة

كأَنّها في الأصلِ تُفاح يذرفُه الغُصن.

**قصيدة من المجموعة الشّعرية " لا لزوم لك" الصّادرة عن منشورات بيت الشّعر في المغرب**

**الرباط - 2015**

**تشريح الوردة :**

حين انتبهتِ الوردةُ

إلى المسافةِ بينها

وبين الأرض،

أخرجَت شوكَها.

حين أدركت الوردةُ

أن ساقاً واحدةً لا تحملُ إلى أيّ مكان

أنّها بلا صوتٍ وغالباً بلا صدى

فكّرت في العطر.

البتلات المتفتحة سُرّة

والسّاق حبلٌ يربطها برحمِ الأرض الغائر.

يوماً ما.. ستولدُ هذه الوردة

على كفّ عاشقة أو بين دفتي كتاب.

**الفصل العاشر من رواية " بيت القشلة "**

**صادرة عن الدّار العربية للعلوم ناشرون – بيروت 2016**

وقفتُ يومَها على مقربةٍ من إحدى أشجار الموز القريبة من بيتِها، كانت تلك ثاني مرة أقترب فيها منه. تجلس مقرفصةً وظهرها يقابلني، ضئيلة الحجم كالعادة وتكلِّم نفسها بصوتٍ خفيض، كأنها تسألُ شخصاً وتعاتبه، ثم تكمل كلامها دون أن تنتظر جوابه، كأنها تحدِّث شخصاً غاب عنها عشرات السنين ولديها أطنان من الكلام له. لم تكن مجنونة رغم كلامها الطويل لنفسها، لقد كانت وحيدة فقط. لماذا ذهبت إليها، لا أعرف. هل لأنَّها صديقة أمِّي، والواحِدُ في مثل هذه الظروف يحتاجُ أماً؟ أم لأنِّي أعرف في قرارة نفسي أنَّها جعلتني أنتظر هذا اليوم بفارغ الصّبر، وها قد أتى وعليها أن تعلم أنه أتى؟ بقيت أراقبُ "تي مون" وهي تحتفن الأرز بكلتا يديها من المصفاة وتضعه في القدر الألومينيوم الموضوعة جانبها. نفضت المصفاة مقلوبةً على الأرضِ المتربةِ بحركاتٍ متتالية، فأسرعت دجاجاتها بخطواتها المضحكة وأخذت تنقرُ الحبوب الصغيرة البيضاء من على الأرض. صوتُ ارتطامِ مناقيرها لا يزال يصلُ إلى أذني منذ سنين، صوت يشبه وصيّة.

لم تكن لدي في ذلك الوقت أفكار كثيرة، أو مواقف في الحياة أو حتى من الأشخاص. أنظرُ إلى تشقّقات قدمِ تي مون الصَّغيرة، فأشعر أنِّي أغيبُ داخلها، كأنها تبتلعني. تذكّرني بالأيام الطويلة تحتَ الشمس والمطر، التي قضيتُها في حقلِ الشَّاي أو في الطريق إلى المدرسة التي ظلّت تتغير باستمرار حتى تشابكت كخيوط لم يعد ينفع معها سوى تركها جانباً ونسيانها، أو بالخوف من أن أستيقظَ وأنا في الجنَّة التي يحكي عنها الفقيه المحجوب وهو يعدني أن أجد فيها فراشاً دافئاً، بعدَ أن اشتكيت له من برد أرضية مخزن الذرة. كانت الجنة مخيفة، فقد كان يصفها دائماً في حديثه بالمكان، والأمكنة لا يمكن أن تكون نعيماً مهما حصل. وأنا أتذكر كل ذلك، بدا لي أن ما سيحصل، كان أفضل ما يمكن أن يحدث.

"سنعود بعد أيَّام قليلة"، قلت لها من مكاني دون أن أتحرَّك أو أفكِّر. خرجتِ الجملة من فمي كأنها كانت هناك طوال الوقت، منذ أمدٍ بعيدٍ، وقرَّرت بمفردها أن تخرج، كما تقرّر الأطباقُ المصفوفة في الخزائن أحياناً أن تسقط هكذا. هل كنتُ جاداً وقتها وأنا أتلفظ بكلمة "سنعود"؟ كانت تلك الكلمة الأسهل، لم تكن لدي الرغبة في البحث عن كلمةٍ أكثر دقَّة. هكذا قال أبي وأصدقاؤه. كانوا يقولونها وهم سعداء، بطريقةٍ غامضة ومتطرفة، "سنعود". وكان علينا نحن أيضاً أن نكررها وبسعادةٍ مختلفة. هم سيعودون إلى وطنهم، ونحن، مثل فأرٍ في مصيدة، نتخبَّط وما نريده هو أن يتم إفلاتنا لنذهب إلى أيّ مكان آخر.

سنعود، لكن إلى أين؟ أنا لا أعرف. سنعود إلى أرضنا، يقولُ والدي الذي اضطره الوفد المغربي للإتيان بي. كيف تكون أرضنا ونحن لم نزرعها؟ كيف تكون أرضنا ونحن لم نسقط ونتشبَّث بحجارتها ونحن نحاول المشي أول مرة؟ كيف تكون أرضنا ونحن لم نخطُ عليها خطوةً واحدة؟ كيف لا تكون الفيتنام هي أرضي وفي ترابها دُفنت أمي ولأجلها حاربوا كلهم باستماتة؟

لم أفكر في أيّ من هذا وأنا واقف على مقربةٍ من بيتِ تي مون. كنتُ فقط مذهولاً من وجهها الذي رأيته للمرة الأولى مستبشراً. كانت تبدو سعيدة وجميلة وكأنها فقدتِ الذاكرة. ضغطتْ على ركبتيها بيديها بعد أن مسحتهما سريعاً على تنورتها ونهضَت. تقدَّمت نحوي مُسرعةً مثل دجاجةٍ، ثم قبّلتني على خدي كأنِّي واحد من حبوب الأرز الفائضة عن الحاجة. في "يِنْ بايْ" وفي الفييتنام بأكملها، لم يكن من التقاليد أو العادة تبادل القُبل كنوعٍ من التحايا، ابتسامة صغيرة أو انحناءة طفيفة كانت تفي بالغرض. لكنَّ صديقة أمِّي فعلت، المرأة الأرملة الوحيدة التي بلا أبناء والتي لم تحببني يوماً من قبل، وضعت يديها في يدي وقالت بنبرةٍ متهدّجة: أجل، أجل.. هذا ما كان يجب أن يحصل منذ زمن، عليك أن تعود لوطنك يا "صان نام". وبينما أنا واقع تحت تأثير الذهول، كرّرت خلفها: أجل، أجل، هذا ما كان يجب أن يحصل منذ زمن.

كان الجميع، باستثناءِ "تانه تو"، مصمّما على تسميتِها بالعودة. حين علِمت بالأمر، جاءت مسرعةً إليّ في حقل الشاي، وقالت، بينما عيناها الصّغيرتان تحجبهما قبّعتها المخروطية ولا يبدو لي من وجهها سوى خدّين مبللين: هذه ليست عودة يا صان، هذه هجرة. أنت تترك أرضك وتغادر، هذا ليس عدلاً. أنت خُلقتَ من هذه الأرض وليس من تلك التي ستعود إليها. الأرض للجميع، وعليك أن تبقى هنا. لا تنصت إليهم. أرجوك. لا تتركني وحيدة هنا.

جلست على الأرض منهكاً وقد وضعت بجانبي السلة المليئة بأوراق الشَّاي الخضراء. الأمر مُنتهٍ، سأبدأ السنة الجديدة هناك. يجب أن أعود، الجميع يناديني بالأوروبي الأسود، هذا يرهقني. الانتقال من منزلٍ لآخر، والخوف والحرب أيضاً يرهقانني، كل شيءٍ يرهقني، وأكثر ما يرهقني، هو عدم فهمي لأيّ شيء. قالت وهي تمسك بيدي مرتجفةً: أنت تكرر ما سمعتَه، أنت لست مقتنعاً بكل هذا، أوراق الشَّاي هذه ليست من هنا أيضاً، ربما جاءت من الصين أول مرة، لكنها نبتت من هذه الأرض ومن أمطار هذه السماء. ثم ضغطت أكثر على يدي وتابعت: أمكَ فييتامية. أنت خرجت من رحمٍ فييتنامية. كيف لا تفهم هذا؟

بدا كلامها بلا أيّ صدى، كأنها تردّد أغنية جميلة بلغةٍ غريبة. مثلَ الأغاني التي كانت تنطلقُ من فمِ الميلودي حين يفرطُ في احتساء نبيذِ الذّرة، هززت رأسي للحن فقط، أما المعنى، فلم يكن يعنيني ولم يمسسني على الإطلاق. كانت تانه تو، أو "المياه الصّافية" باللغة الفيتنامية التقليدية، أوّل حبٍّ لي، حُبّ بعينينٍ ضيِّقتين كانتا الوحيدتين اللتين، رغم ضيقهما، من استطاعتا رؤيتي بأكملي. أما أنا، فكنتُ بأعين واسعة وعسلية، واسعة ومخيفة كما كانت تقول تي مون، أعين لم تستطع أن تبادل أحداً حبّاً ولا حتى كراهية، وكانت دائماً أكبر من المشهد أمامي. لم أكن أستطيع أن أحبّ امرأة ولذلك ضاعت تانه تو منِّي كما ضاعت من قبلها فاطمة وأسماء كثيرة ستأتي فيما بعدُ متأكد من أنها ستجدُ المصير نفسه. ما هي المرأة في النهاية؟ ذلك الكائن الذي أتى بي إلى العالم، ثم اختفى، مثل صبية يضغطون جرسَ المنازل ويهربون، وحين تفتح الباب، لا تجدُ سوى أكياسِ بلاستيكية جلبتها الريح معها من مكانٍ بعيد. لقد كنت أنا ذلك الكيس البلاستيكي الفارغ الذي تسلَّت به الريح فانتهى به المطاف عالقاً وممزقاً في غصن شجرة.

حين قرَّرت أمِّي الزواج بأبي، بعد أن تعرَّفت عليه في تعاونية زراعيةٍ قريبةٍ من هانويْ، وافق الجميع على مضضٍ. تعليماتِ القائدِ هو شي منه، كانت أقوى من أن تُرفض. قبلها بأعوامٍ، كان ضرباً من المستحيلِ أن تقبلَ عائلة فييتنامية تزويجَ ابنتها من غريب، بل حتى من شخصٍ لا ينتمي إلى الأقلية نفسها. لكنَّ الحرب الهند-الصينية، جعلت أشياء كثيرة ممكنة الحدوث، من بينها أن يموتَ زوج "تي أمون" في الحرب، بعيارٍ ناريّ خرج من فيلقِ القناصة الإفريقيين في الجيش الفرنسي، وأن تظلّ إلى الأبد مقتنعةً أنه خرج من بندقية زوج صديقتها، الذي هو والدي. لم يكن والدي وحدَه القناص، كانوا عشراتٍ، في تلك التعاونية، لكنّها ظلت مصرة، أنه أبي. كانت تظن أن لا أحدَ بإمكانه أن يخطِف زوجها سوى ذلك المغربي الذي يُقال أنّ بوسعه أن يقنص النّملة من الشجرة. تخبرني إحدى الجارات: لقد جاءت إلى والدتك وأخبرتها أنَّ زواجها لا يجبُ أن يتمَّ من الميلودي. قالت: لن يقذف في رحِمك منياً، بل دماء زوجي، وسيكون لعنةً عليك! لكنَّ أمَّك تزوَّجت به. لم يشبه والدك الفييتناميين، ليس شكلاً فقط، بل حتى في طريقةِ تعامله. لقد كان آتياً من مكانٍ بعيدٍ لا تعرف هي عنه شيئاً، كل ما حكاه لها عنه أنه مكان مليء بالحقول أيضاً، لكنها قلما تخضرّ كما هنا. كان مختلفا، أعني أكثر اختلافاً من بقيّة المغاربة، يعامل المرأة على أنَّها الكائن الضَّعيف الذي لا يعتمد عليه، وقد كانت أمّك تشتغل في حقل الذّرة وحلبِ الأبقار وترعى أسرة كبيرة، ولم تعد ترغب في أن يعتمد عليها أحد. وهكذا تزوجت والدك بعد أن أخبرها مرَّة أنه يبحث عن زوجة في تلميح لأمر ما.

قرار والدي في الزواج، لم يأتِ فجأة، كان نتيجة تراكماتٍ طويلة من اختلاساتِه النَّظر للنسوة والصبّايا عندَ النَّهر في صباحاتِ يوم الأحد تكدَّست في عينيه وأماكن أخرى بطريقةٍ مُعذبة. لكنَّ طلبه الأول والأخير يدَ فتاة من قريته والذي قوبِلَ بالرَّفض، جعل كل تلك الخيالاتِ تتراجع لمكانٍ ما، ولم تعاود الظّهور سوى في الفيتنام. لم تكن النِّسوة في الفيتنام كتلك التي في بلّعيد. لا شيء فيهن يهتزّ ويُكشَف حتى حينَ يركضن أو ينحنين. فسِّر ذلك مع نفسه أنها نتيجة الحرب، أن آلة عملاقة حادّة، نزلت بشكل عمودي على أجسادهنّ ونَّحت كل شيء زائد، من الأمام كان أو الخلف. كُنّ متشابهاتٍ جميعهن، النِّسوة في الكولخوز، في قدِّهن وحتى أوجههن في عيني الميلودي وربما بقية المغاربة. لكن الميلودي حين اختارَ أمِّي ليلمح لها بالزواج، فعل لأنها بالضِّبط تلك المرأة، لأجل ظهرها المهدود بالهمّ، عينيها المتجهتين دوماً نحو الأرضِ كأنها تقتفي أثراً ما، والأهم، لأجل ذلك الانكسار الذي رآه في عينيها ولمسَ أعماقه.

في تلك الليلة من سنة 1952، قذفَ والدي دماء زوج تي مون في رحمها، وبعدها بتسعة أشهر، وُلدت أنا وماتت هي. وُلدتُ بعيدَ انتصار بيان ديان فو، بشهرين، تحت سماءٍ، مثل زجاج نظارة مغبَشَّة، مغطّاة عن آخرها بالضباب. سماء، كهذه، كانَ من الصَّعب على أيِّ نجمٍ أن يُبصِرني عبرها ويختارني. بسبب بيان ديان فو، لم يكن لأحدٍ أن يحزَن لموتِ أمِّي. كانت التعاونية الزراعية مثلَ صيّادٍ ملأَ سلاله عن آخرها بالسمك، غير مكترث بشأن فردة الحذاء الممزقة العالقة بالصنارة.

كان صعباً بالنسبة لي، الوصول إلى صيغةٍ مقنعةٍ للحكاية، حكاية من أين جئتُ وإلى أين سأذهب. ولذلك، كان عليّ جمعها من بيوت كثيرة، مثل حلوى عيد الهالويين في الأفلام، أقفَ أمامَ الأبواب منتظراً أحداً أن يملأ الفراغات الكثيرة في ذاكرتي بالحكايا. عشتُ سنواتٍ قليلة في منزل جدّتي، كانت تجلسني أمامها وتنظر لي أحياناً بشفقةٍ وأخرى بخوف. "أنت لا تسأل عن أي شيء يا صان نام، يجب أن تسأل"، تقول لي وهي تضعُ يديها على كتفي. أكتفي بالنظر إليها ثم إلى الجدار خلفها ناقلاً بصري إلى كل ما حولها، لعلي أجد شيئاً ما، وسط الأثاث القليل في بيتها يجعلني أسأل. " أمك مثلاً يا بني، ألا تريد أن تعرف عنها أي شيء؟ ألا يضايقك أن لبقيّة الأطفال أمهات"؟ لم يكن يضايقني ذلك، لأننا في النهاية جميعاً في الكولخوز، كنا بأمهاتٍ أم بدونهن، نجري في الحقول حفاة، ونأكل طبق الأرز نفسه، والفاكهة والشاي ذاتهما. "من لا أبَ له، لا سقفَ له". كثيراً ما سمعتُ الفيتناميين يرددون هذا المثل، إلا أنَّ الوقت الوحيد الذي شعرت فيه بشيءٍ ناقص، بأنِّي أرفعُ عيني للسقف فأجدني في العراء حصل حين رحلت جدّتي عن العالم وأنا في السَّادسة.

تخبرني أنَّ والدي نظرَ إليَّ بعدَ أن حملتني إليه، كما ينظر أحدهم إلى ألسنة لهبٍ هائلة تأكل محصوله، خائفاً، دون أن يستطيعَ مدَّ يديه ولمسي. الشيء الوحيد الذي كان بوسعه فعله، هو أن يتوغل في الغابة القريبة، يشرب ويدخِّن، قبل أن يلحق به أصدقاؤه المغاربة ويتحلقوا حوله وتبدأ الكلمات تخرجُ كالعادة خشنةً من تحتِ شواربهم الكثَّة، وهم يضربون بأكفهم الضخمة على ظهر الأرمل الجديد، في تأثر قلما كان يظهر على وجوههم.

كانت في الثامنة عشرة من عُمرها، تكزّ على أسنانها محاولةً جهدها إخراجي، بينما قلّة من نساءُ الكولخوز، يجلسنَ على مقربةٍ من سريرها على رأسهنّ والدتها، منتظراتٍ– في رعبٍ– خروج الطِّفل، يكررن صلوات لعلها تحمي المولودَ وأمَّه من فتك الأرواح الشريرة بهما. اهتزَّ سعف شجر الموز الذي يغطي السقف، وتشتت سربٌ من الطيور الواجم فوقه في جهاتٍ مختلفة من السّماء حين صرخت أمِّي صرختها الأخيرة، وتبعتُها بصرختي الأولى. أما "تي مون" فظلت واقفةً على مقربةٍ من قصبٍ يحيطُ بحظيرة الخنازير، تتوعَّد، وتجيء وتذهب، وتضرب كفاً بكفٍّ، ولم تهدأ إلا بعد أن خرجتْ جدَّتي، وهي تحملُ حبليَ السرِّي حائرةً ومن صدرها يتصاعد نشيجٍ تقطّعه آهاتٌ صغيرة. لم تبدُ تي مون مصدومة، بدت كمن كان واقفاً لوقتٍ طويل عند باب مشرحةٍ منتظراً جُثّة.

قالت لجدَّتي، وهي تنتزع من يدها الكيس: "هذا الطِّفل الذي قتلَ أمُّه، لا أحد يعرف مكانَ سرير جدَّته، ستظل روحه مُعذبة. " كان قد قرَّر والدي حينها، بعد أن نظرَ ملياً إلى أنفِي أنه لن يقرر أي شيء سواء تعلَّق بحبلي السّري أو حياتي القادمة، لم أعرِف سرَّ أنفي، إلا حين زارتنا في مزرعة بني يحيى، بعدَ عودتنا إلى المغرب، تلك المرأة. لمحتني آتياً من بعيدٍ، عائداً بالقطيع الهزيل من الخرفان من الرابية، فنهضَت من مكانها وهي تضربُ على صدرها، فتحت يديها لي، وأخذتني في حضنها وهي تطبع قبلاً عديدة على وجهي وكتفي، بينما الكلامُ يختلط ببكائها وهي تتحسَّس أنفي. كلام بنبرةٍ حادّة. فهمتُ في ما بعدُ أنه يعني بأنَّ لي أنفاً يشبه تماماً أنفَ والدتها، والدة الميلودي أيْ جدَّتي.

في المساء الذي وُلدت فيه، خارجَ الكوخ الذي استلقَت فيه أمِّي ميتةً، بعد حياةٍ قصيرة، وأنا إلى جوارها، رضيعاً بعينينْ كبيرتين مُغمَضتين،كانت النسوة القليلات حولي، اللواتي توزعتُ لاحقاً على منازلهنّ، يطبِّقْنَ بالحذافير كلمات مونتيسكيو، "يجبُ أن نبكي حين يولد الناس، لا حين يموتون". جففن دموعهنّ سريعاً قبل أن ينصرفن في تواطؤٍ غير معلن و لعلَّ الشيء الوحيد الذي أخذته معي من الفيتنام هو تلك القدرة على الخروج بسرعةٍ من الشُّعور. بينما في الخارج، كانت كلمات تي مون، التي تبتعدُ عن العتبَة، تصلُ إلى مسامِع جدَّتي كأنَّها حجارة مصوبة بدقة: "ستظل روحه معذّبة، لا تحاولي الاستعانة بالشَّامان، لن تُصلح شيئاً". قبلَ أن تتوقفَ عند الحظيرة، و تُفرغَ الكيسَ الذي يحملُ حبليَ السرّي، وهي تهزّه بعصبيةٍ، في إناء علْفِ الخنازير.

ضربت جدَّتي بكلامِ تي مون عرض الحائط، لم تمضِ أيامٍ طويلة، حتى جلبت الشامَان لتبعد عنِّي الشؤم وتمنحني اسماً. وضعَتْني على مهدٍ، قريبٍ منها و أخذت ترتِّل أهازيجها لساعةٍ متواصلة، والكرسيّ يهتزّ تحتها كأنَّه فرس. جالت عوالمَ كثيرة وطرقت كل بابٍ اعتادت طرقه. بحّ صوتها وبدأ يتهدّج فجأةً، إلى أن غطّته رجفةٌ قويّة. ترجلت عن الكرسي، ونظرت إلي وأنا نائمٌ قبل أن تتخطّاني. التفتت لجدتي:

- لم يحصل لي مثل هذا من زمن، لكن لا أحدَ من الأسلاف يريد منحه إسمه. أين أمّه؟

- ماتت وهي تلده.

- أين جدّته إذن؟

- أنا جدّته.

- متأكدة أنك دفنت الحبل السري جيداً بالأرض، أسفلَ قدم سريرك؟

- آه، لا، أنا أمّ أمه..

- أين جدّته إذن؟

- لا أحد يعرف. الأمر معقد بعض الشيء..

- ماذا عن والده؟

- لم يرد أخذه معه. تعرفين الرجال إذا ماتت زوجاتهم، يصبحونَ مثل القشة.

- ماذا فعلتم بالحبل السري إذن؟

فهِمت الشامان من صمتِ جدَّتي الجواب. لم يدفنِ الحبلُ السري أسفل قدم سرير الجَدّة، وبهذا، لن تستطيع روح المولود بعدَ الموت الاستدلال على مكانها والانبعاث من جديد. ستظلّ الروح هائمةً في أنحاء الأرض ومعذّبة، أرضٌ تسلِّمها لأرضٍ، مثل طائرٍ، دخل سهواً غرفة ضيقة. " كم هو صعبٌ على المرء أن يعيشَ حياةً واحدة لا غير!" قالت الشامانِ، وهي تجمع أغراضها، دون أن تأخذ معها أيا من الهبات التي يتقرب بها الأهالي للوسيطة الروحية، تركت كل شيءٍ في مكانه، و أعادت كلمتها غير مصدقة: "لا أحدَ من الأسلاف يريد منحه اسمه". صحبت جدّتي الشامان إلى باب الكوخ، رجتها وهي تودِّعها ألا تخبر أحداً، وتُبقيَ الأمر بينهما. ثم وقفت تتابعها وهي تختفي. نظرت جدتي للأفق، إلى ما خلف الضباب، وعادت إلي، وقد قررت بلا رجعةٍ أن تسميني "صان نام".

في سنواتي الأولى في المغرب، كانَ من الصعب أن ألتفِت بعدَ أن يناديني أحد بالاسم المغربي. لا أعرف سبَب تلك التسمية التي أطلقها عليّ والدي حين طلبت جدتي من الفقِيهْ المحجوب، أن يقنعه ليذهب ويسجِّلني في دفتر المواليد. عدا كونه الأكبر سناً، كان المحجوب رجلاً متعلماً وذاكَ كان كافيا كي يمتنع أحدٌ من المغاربة من أن ينزلَ كلمته للأرض. يعودون إليه متى ما نشب عراك بينهم، وحين ماتَ اثنانِ من المغاربة، أحدُهما والدُ "تانه تو"، تكلف بالطقوسِ وترتيب صلاة الجنازة. قبل ذلك، لا أذكر أنِّي رأيتُ أحداً يصلِّي، ربما كانوا يفعلون في بيوتهم، أو في الخفاء، أو ربما لا يفعلون أصلاً. أيَّامها، وقبل العودة الى المغرب، شعرتُ أنَّه دينٌ يقدِّس الموت، لدرجة أنَّ الصلاة الوحيدة فيه هي صلاة الجنازة. كان الموت هو أمِّي وجدَّتي، من أنجبَني ومن رعاني، ولذلك كان له دائماً في قلبي حيِّزٌ كبير.

مضى أكثر من شهرين على ولادتي، قبل أن يسجّلني والدي. لم يفلح أحد في إقناعه، لا جدّتي ولا شيخ المغاربة. فقط حين علِمَ أن الحكومة تمنح تعويضاً عن أبناء الفيتناميات من مغاربة اقتنع. سمِّه"صان نام"، هكذا سمُّاه الأسلاف، قالت جدتي له، مؤكدة. لكنه بعد ساعاتٍ قليلة، عادَ بورقةٍ كتب عليها بخطّ مرتبك، بدا أن المسؤول عن تسجيل الولادات، كان يسمع تهجئته حرفاً بحرف من فمه : بوشعيب الشّهب.